فَـــنُّ الاعْتراضِ عندَ عبدِ القَاهِـــرِ الجُرجَانيِّ
وَجْهٌ من وُجُوهِ النَّظمِ لم نَحْفِلْ بِهِ

يوسف ذيب العمر[1*]

1- مُدَرِّس في قسم اللُّغة العربيَّة، جامعة الفرات.

*- yosef Omar@damascusuniversity.edu.sy

المُلخَّصُ:

تبقى الأفكارُ الجليلةُ في بابِهَا جَفْرًا، إذا نَضَـــبَ الكلامُ، مَعِينًا يغترِفُ منه النَّاسُ كلٌّ بجدِّهِ واجتهادِهِ وكفاحِهِ، وهذِهِ من صِـنَاعاتِ العُقُولِ التي تخصِـفُ على الأفكارِ من كدِّها وصـبرِهَا ما يجعلُها مُضيئةً ولو لم تَمْسَسْها نارٌ؛ لأنَّها من صَـنْعةِ القُلُوبِ الحيَّةِ، والنُّفوسِ الحسَّاسـةِ. وخيرُ الأفكارِ فكرةٌ كُتِبَتْ بمدادِ قلبِ صـــاحِبِهَا، وارتَوَت من معانيه، وهذا موضـــوعُ بحثِنا في نظريَّةِ النَّظمِ التي ما زالَ فيها جديدٌ لم تفترِعْهُ أقلامُ النَّاطقينَ باللِّســـانِ المبينِ، وقد كانَ من محاسنِ منهجِ عبدِ القاهرِ أنَّهُ يغمِسُ قلمَه بالفِكْرَةِ حتَّى يقضـيَ منها أمرًا كانَ مفعولًا، ثمَّ يختمُ بأنَّ لها وُجُوهًا أُخَرَ سَـتَظَلُّ مطويَّةً في ضَـمِيرِ الكلمةِ وسـرِّها حتَّى يأتيَ من يُزِيلَ الثَّرى عن نبعِهَا المتدفِّقِ؛ ليعَلَمَ كلُّ أُناسٍ مشـــربَهم، وهذا مَرَامٌ ســـهلٌ على أيَّةِ حالٍ، ولكنَّه عندما يتكلَّمُ على وُجُوهِ الكلامِ وفُرُوقِهِ، وأنَّها من معاني النَّحْو وقوانينِهِ= يذكرُ أنَّ الفُرُوقَ والوُجُوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها، ونهايةٌ لا تجدُ لها ازدياداً بعدها، ثمَّ لا يقفُ إلَّا على وُجُوهٍ وفُرُوقٍ من الكلام محدَّداتٍ، بينها وبينَ عبارةِ: (ليس لها غاية) أمدٌ بعيدٌ جدًّا= وهذا يفارقُ ما تقدَّمَ بأنَّه مَرَامٌ صـــــعبٌ دونه خَدَدٌ، لأنَّه لم يَقِفْ على هذا المذهَبِ - والاعتراضُ وجهُ وجوهِهِ - إلا لمامًا مثلَ حَسْـــوِ الطَّيرِ ماءَ الثِّمادِ، بعبارةٍ ثانية: غَمسَ الرَّجلُ قلمَه في أبنية الشِّعر العربيِّ والنَّثر العربيِّ أيضًا، فوَجَدَ للكلام وجوهًا وفروقًا بلاغيَّةً وجدانيَّةً كثيرةً يصـعبُ حصرُها وإحصاؤها، فوقَفَ عند ضُرُوبٍ منها تحتاجُ إلى صبرٍ وتقليبٍ، وتجاوزَ أخرى أشار إليها لمامًا، لوضـوح مذهبها، ولكنَّ عبارةَ: (الوجوه الكثيرة) التي سيبين مكانُها وفحواها، تدلُّ دلالـةً أكيدةً على أنَّ في نظريَّةِ النَّظمِ وجوهًا وفروقًا مشـــعَّثةً تحتاج إلى ترتيبٍ ما دُمْنا حريصين على أن يكونَ لنا منهجٌ عربيٌّ يقرأ التُّراثَ العربيَّ بعينٍ منصفة.

الكلماتُ المفتاحِيَّةُ: الاعتراضُ، البلاغةُ، الجُرجانيُّ، الشِّعر.

تاريخ الإيداع: 2024/05/27
تاريخ القبول: 2024/07/31

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

ISSN (online): 2789-6552
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

The art of objection according to Abdul Qaher Al-Jurjani An aspect of the systems that we did not pay attention to

Yosef deb al-omar[1*]
1-lectuer in the Arabic language Departmen, Al- Furat University.
*- **yosef Omar@damascusuniversity.edu.sy.**

Received: 27/05/2024
Accepted: 31/07/2024

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

Abstract:

Great ideas remain empty in their door, when words run out, a source from which people each draw with their hard work, diligence, and struggle, and these are among the crafts of minds that pour on thoughts from their toil and patience, which makes them luminous even if no fire touches them, because they are the crafts of hearts. Living, sensitive souls. The best ideas are an idea written with the ink of its owner's heart, and drawn from its meanings. This is the subject of our research in the theory of systems, in which there is still something new that has not been invented by the pens of the speakers of the clear tongue. One of the virtues of Abdel Qahir's approach was that he immersed his pen in the idea until he eliminated something that was on his mind, then he concluded by saying that it had other faces that would remain hidden in the conscience and secret of the word until someone comes to remove the dust from its flowing spring. So that every person should know their drinking place, and this is an easy goal in any case, but when he talks about the aspects of speech and its differences, and that they are among the meanings of grammar and its laws= It is mentioned that there are many differences and aspects that do not have a goal to stop at, and an end that does not find any increase after it. Then it only stops at the aspects and differences of speech that are definite, between them and the phrase: (it has no goal) a very long term = and this differs from what was mentioned above in that it is a difficult goal without it. It is limited, because he did not encounter this classification - and the objection is the main facet of it - in his theory except for a period of time, like a bird's taste of dung water.

Keywords: Objection, Rhetoric, Al-Jurjani, Poetry.

المُقدّمـــة:

كَتَبَ جَمْعٌ غفيرٌ عن نظريَّةِ الجُرجانيّ كُتُبًا ورســائِلَ وأبحاثًا كثيرةً جِدًّا، وقد أدليتُ بدلويَ بينَ تلكَ الدِّلاءِ مَرَّاتٍ كثيرةً أيضًــا، ولكنّي أجِدُ ـ كلَّما قرأتُ في دلائلِ الإعجازِ ـ شيئًا آخرَ كأنّي أقرأُ الكتابَ لساعتي، وقد قالَ المزنيُّ صاحبُ الإمامِ الشَّافعيّ: «أنا أنظرُ في كتابِ ((الرِّسَــالةِ)) عن الشَّــافعيّ منذُ خمســينَ ســنةً، ما أعلمُ أنّي نظرتُ فيه من مَرَّةٍ إلَّا وأَنَا أســتفيدُ شــيئًا لم أكُنْ عَرَفْتُه»(الإمام الشــافعي، د.ت ص4) ، وهذا لا يعني شَــيئًا غيرَ أنَّ العقليَّةَ المخلصــةَ قد أنفقَتْ في صــياغةِ الفكرةِ وتحكِيكِهَا دهرًا كرينًا، وأفنت عليها من ضـرامِ النَّفسِ ما جَعَلَهَا تُلاصِـقُ الأكبادَ، وتسْـكنُ صـميمَ الفُؤَادِ، حتَّى صَـارَت خليقةً بأن تُكتَبَ هكذا على بياضِ النَّواظر بالسَّوادِ، وهذه من صفاتِ الكلمةِ الفذَّةِ، والفكرة العبقريَّةِ النَّابهة التي كلَّما قلَّبْتَها أسفَرَتْ لكَ مُرَاد.

ومن ظَوَاهِرِ منهجِ الجُرجانيّ في مكابَدَةِ العِلمِ الذي بينَ يديهِ، أنَّه يصِـفُ لكَ الحالَ وهو يقلِّبُ الفكرةَ على وجهِهَا وظهرِهَا بصـبرٍ لا ينفَدُ وعزيمةٍ لا تكِلُّ، فإذا قَضَــى منها وَطَرًا انتقلَ إلى ما هو من بناتِهَا ووداياها، أو إلى ما يكشِـفُ غموضَــها، ويسـفِرُ عن خَوَافيها، ولكنَّه يختِمُ بأنَّ لها وُجُوهًا وفُرُوقًا أُخَرَ ينبغي لمَنْ طُوِيَت جوانحُهُ على شـيءٍ من عزيمةٍ أن يتابِعَ ما ابتدأْتُه، ويتِمَّ ما حصَّـلْتُه، وهذه من دلائل صبرِهِ، وأسرار اجتهاد، لها حديثٌ منفردٌ قبلَ الختام.

وربَّما كان من المسـتحسَـنِ أو من الواجبِ الذي تفرضُــهُ قضــايا المناهج، أن نذكرَ قبلَ أن الدُّخول في محرابِ دلائل الإعجاز، أنَّ هذه الورقةَ لها مقصــدٌ محدَّدٌ، وهدفٌ مرادٌ ينأى بنفسِــهِ عن الكلام على نظريَّةِ النَّظمِ وتفاصــيلها الكثيرة، ووُجُوهها المتعدِّدة، إلَّا بما يفرضُــهُ المقام، وتقتضــيه الحاجة؛ فمن المعلوم أنَّ الإمامَ الجرجانيَّ زاوجَ بينَ النَّحو والشِّـعر، أو قدحَ النَّحوَ بالشِّـعر فاستنبطَ للعربيَّةِ علمًا جليلًا عاليًا لا تجد نظيرًا له في لغةٍ من لغات الدُّنيا، وهو علم المعاني، وهذا ظاهرٌ في صدر دلائل الإعجاز، عندما ذكرَ أنَّ الوُجُوه والفروق أو الدِّقائق والأسرار لا يعرفُها من جَهِلَ العلاقة الدَّافئةَ بين النَّحو والشِّـعر؛ لأنَّ الشِّـعر هو التُّربة الطيِّبة التي تُغرَسُ فيها الدَّقائق والأسرار، والفروق والوجوه، والنَّحوُ هو الذي يسقيها من نبعِهِ المتدفِّق، أو بعبارتِهِ: هو النَّاسب الذي ينميها إلى أصولها ويبين فاضلها من مفضولها[1].

إذًا، ظلَّ الرَّجل زمنًا مديدًا متراخيًا يحدِّق في أصـول النَّحو، ويقرأ الشِّـعر بعين الصَّـبر والتَّذوق، حتَّى أسـفرَ له ذلك عن أبوابٍ يعرفُها من قلَّبَ صـحائف دلائل الإعجاز، وهي التي سمَّاها الوجوه والفروق، وقد ذكر غيرَ ما مرَّةٍ أنَّها كثيرةٌ جدًّا، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادًا بعدها، ثمَّ إذا ذهبتَ تعدُّ ما ذكَرَهُ وجدتَهُ يقعُ بعيدًا عن عبارةِ الكثرةِ، قريبًا من شــيءٍ آخرَ ربَّما فرضــتْهُ طبيعةُ الوجوه التي تجاوزها، والاعتراضُ واحدٌ منها؛ لأنَّه ذكره في إشــارتينِ: الأولى في أســرار البلاغة وســيأتي حديثُها، والثَّانية في دلائل الأعجاز عندما وَقَفَ على بيتٍ من شـعرِ ابنِ المعتزِّ، وضـعَهُ في صـنفِ النَّمط الفاخر من الكلام، فكانَ الاعتراضُ وجهًا من الوجوه التي صـيَّرته كذلك فاخرًا دقيقَ الصُّـنع، ولكنَّ قراءةَ هذا الوجهِ من وجوه البلاغة تصـلُك بنتيجةٍ مبدئيَّةٍ مؤدَّاها: أنَّ الرَّجل لم يقف عنده طويلًا؛ لأنَّ له طريقًا نهجةً، وسبيلًا لاحبًا منقادًا، فتجاوزَ المنقادَ إلى ما غَمُضَ وتشعَّبت أبوابه، يدلُّك على هذا أنَّ الجرجانيَّ أخذ هذا

(1)– قال: «عَنَّ لها بسوءِ الاتِّفاقِ رأيٌ صارَ حجازًا بينها وبينَ العلمِ بها، وسُدًّا دونَ أن تصِلَ إليها/ وهو أن ساءَ اعتقادُهَا في الشِّعر الذي هو معدِنُها، وعليه المعوَّلُ فيها، وفي علمِ الإعرابِ الذي هو لها كالنَّاسِبِ الذي ينميها إلى أُصُولِها، ويبيِّنُ فاضَلَها من مفضولها، فجَعَلَت تظهرُ الزُّهدَ في كلِّ واحدٍ من النَّوعينِ، وتطرَحُ كلًّا من الصِّنفينِ، وتَرَى التَّشاغُلَ عنهما أولى من الاشتغال بهما والإعراضَ عن تدبُّرهما أصوبَ من الإقبالِ على تعلُّمهما». دلائل الإعجاز، ص9، 10.

البابَ عن ابن جنّي وإنْ لم يصرّح بذلك، وابنُ جنّي كان يعدُّه مظهرًا جماليًّا من مظاهر فصاحة المتكلّم وقوّةِ نفسِهِ وامتداد نفسه، وهذا على أيَّةِ حالٍ وصفٌ ينطبق على أبواب دلائل الإعجاز من حيثُ يبدأ عدُّها حتَّى نهايتها.

وقد ذَكرَ في صــدرِ كتابِهِ الجليلِ (دلائل الإعجاز) نصًّــا متميّزًا جدًّا قالَ فيه: «وإذ قد عَرَفتَ أنَّ مَدارَ أمرِ ((النّظم)) على مَعاني النَّحْوِ، وعلى الوجُوهِ والفُرُوقِ التي من شــأنِهَا أنْ تكونَ فيه، فاعلمْ أنَّ **الفُرُوقَ والوُجُوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها، ونهايةٌ لا تجدُ لها ازدياداً بعدها**»(الجرجاني، 1992، ص87).

وإذا ذَهَبْتَ تعُدُّ وجوهَ النَّظمِ وفُرُوقَه التي ذُكِرَت، وجدتَّ هذا الوجهَ (الاعتراض) غائبًا غيرَ موجودٍ، إلَّا في إشــاراتٍ قلائِلَ ذُكِرَت في مقدّمات كتابَيْهِ= ونحنُ إذا أخذْنَا عبارةَ: (ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها) = ووضـــعناها إلى جِوارِ الوُجُوهِ والفُرُوق التي وَقَفَ عندها وتأمَّلَ، وأطالَ الشَّرحَ وفصَّلَ= وجدنا حلْقةً مازالَتْ شبهَ مفقودةٍ، وأنَّه ما زال في الكلامِ منادِحُ لو سارت بها العيسُ المراسيلُ كلَّتْ. وهذه الكلمةُ خُطْوةٌ في هذه المفازةِ ترجو الصَّواب.

الاعتراضُ والوُجُوهُ الغَائِبَةُ:

كانت رسالةُ الإمامِ عبد القاهرِ في كتابيهِ الجليلينِ ــ وهذا كلامٌ مختصرٌ في رسالتِهِ لابدَّ منه ـــ قائمًا في الأسرار على «بيانِ أمرِ المعاني كيفَ تختلفُ وتتَّفِقُ، ومن أين تجتمعُ وتفترقُ.. [وتبيين] أحوالها في كرم منصـــبها من العقل، وتمكُّنها في نصـــابه، وقرب رَحِمها منه، أو بعدها = حين تُنسَـــبُ= عنه، وكونها كالحليفِ الجاري مجرى النَّسَـــب، أو الزَّنيم الملصَـــق بالقوم لا يقبلونَه،/ ولا يمتعضــون له ولا يذبُّون دونه» (الجرجاني، 1991، ص26). وفي دلائل الإعجاز رحلةٌ طويلةٌ موغِلةٌ في البحثِ عن الخصــائصِ التَّركيبيَّةِ لتلكَ المَعَاني، والدَّقائِقِ والأسرارِ التي تعرِضُ في نظمِ الكلامِ؛ لأنَّها سرُّ مزيّتِهِ، وأساسُ تفضيلِهِ، «والسَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ، ووجَبَ أن يفضُــلَ بعضُــه بعضًــا، وأن يَبْعُدَ الشــأْوُ في ذلك، وتمتَدَّ الغايةُ، وَيعلو المُرتقَى، ويَعِزَّ المَطلبُ، حتّى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ، وإلى أن يخرُجَ من طَوْقِ البَشر»(الجرجاني، 1991، ص26) = ومن أجلِ أن يقيمَ تلكَ المفاضلةَ، وَقَفَ طويلًا على هذِهِ الخصــــائِصِ؛ فدرَسَ التَّقديمَ والتَّأخيرَ، وتأمَّلَ الحذفَ والذِّكرَ، وقلَّبَ النَّظرَ في فُرُوقِ التَّعريفِ والتَّنكيرِ، والفصــــلِ والوصلِ؛ ولكثرةِ ملابستِهِ للكلامِ العربيّ، وسعةِ فهمِهِ لمعانيهِ، وطُوْلِ التَّأمُّلِ في مبانيه= كانَ يحسُّ إحساسًا مؤكدًا أنَّ في الّلسانَ العربيّ من تلك الوُجُوهِ والفُرُوقِ ما يروقُ ويعجِبُ، ولكنَّه ما زالَ مختفيًا في شِــعابِ الكلام، محتجبًا بأســتاره، ينتظرُ مَنْ يشُــقُّ عنه الحُجُبَ، وينفضُ عن مغيَّبِهِ غُبَارَ النِّســـيان. وعبارةُ: (الفُرُوق والوُجُوه كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها، ونهايةٌ لا تجدُ لها ازدياداً بعدها)= أصلٌ كريمٌ من أصولِ علم الجرجانيّ، يشحَذُ بها الهمَمَ، ويصقُلُ بها الأفهامَ؛ لأنَّه لم يقلْ مثلًا: (حَسْبُك ، قد حُمِّلتَ مالا تُطيقْ)[1] كما يقولُ أسامةُ بنُ منقذَ، ولم يقُلْ أيضًا: تكفيكَ هذه الوُجُوهُ والفُرُوقُ، فالزمْهَا واكتفِ بها ولا تعْدُ عيناك عنها= كلَّ ذلك لم يقُلْ؛ لأنَّه وجدَ أنَّ الّلسانَ العربيَّ مازال منطويًا على أسرارٍ كثيرةٍ، ولطائفَ جمَّةٍ، ودقائِقَ لطيفةٍ جدًّا، ولكنَّها تحتاج إلى صبرٍ وكفاحٍ ومجاهدةٍ طويلةٍ، وهذا منهجٌ بُنِيَت عليه أصولُ العربيَّة كلُّهَا، وهو المنهج الفريدُ، والبابُ الصَّحيحُ لمن أرادَ أنْ يقدحَ زنادَ الأفكار، أو يحاورَ العقليَّاتِ المخلصــةَ حتَّى تسفِرَ له عن فكرةٍ جديدةٍ يكونُ بها خليلَ نفسِهِ، وأبا عمر فكره كما كان ابنُ جنّي يقولُ (ابن جني، د. ت، ج1، ص190).

(1)- وصدُرُهُ: (حتَّى متى ياقلب، لا تستفيق!)، ينظر الديوان، صـ80.

وتجدرُ الإشارةُ أوَّلًا إلى أنَّ الإمامَ الجرجانيَّ لم يتناولِ الاعتراضَ بطريقةٍ مبسوطةٍ مستوفاةٍ على نحو ما فعلَ في وُجُوهِ النَّظمِ وفُرُوقِهِ الأُخرَيَاتِ؛ بل ذَكَرَ إشـــارتينِ يتيمينِ، الأولى في أســـرارِ البلاغة بلغةٍ حمَّالةِ أوجهٍ، والثَّانيةُ في دلائلِ الإعجازِ، لكنَّها جاءت على خلافِ نظيرتها تلك/ صريحةً تقصدُ لبَّ هذا الوجهِ البلاغيّ بالمفهومِ الذي استقرَّ وثبَتَتْ أصولُهُ وفروعُهُ فيما بعد.

وقدْ ذهبَ البحثُ قبل قليلٍ إلى أنَّ الجرجانيَّ تكلَّمَ على الاعتراضِ في أســـرارِ البلاغةِ بلغةٍ حمَّالةِ أوجهٍ، لفظُها الحشـــوُ، ومعناها الاعتراضُ، وليسَ هذا افتراضـاً منْ أجلِ الظَّفرِ بما لم ينصَّ عليه الرَّجلُ صـراحةً؛ بل الدَّليلُ على ذلكَ أنَّ عبدَ القاهرِ عادَ في الفقرةِ نفسِهَا؛ ليشيرَ إلى فائدةٍ طريفةٍ للحشوِ لم يُشِرْ إليها مَنْ تكلَّموا عليه قبلَهُ، ولعلَّ منَ الصَّوابِ أنْ نقتبسَ نصَّـهُ كاملاً حتَّى يتسنَّى لنا أنَّ نطمئنَّ إلى هذا التَّفسيرِ. يقولُ: «وأمَّا ((الحشوُ))، فإنَّما كُرِهَ وذُمَّ وأُنْكرَ ورُدَّ، لأنَّه خلا منَ الفائدةِ، ولم تَحْلَ منه بعائدةٍ، ولو أفادَ لم يكنْ حشواً، ولم يُدْعَ لغْواً. وقد تراهُ ـ معَ إطلاقِ هذا الاسمِ عليه ـ واقعاً منَ القَبُولِ أحسنَ موقعٍ، ومُدْرِكاً منَ الرِّضَـى أجزلَ حظٍّ، وذاكَ لإفادتِهِ إيَّاكَ، على مجيئِهِ مجيءَ ما لا معوَّلَ في الإفادةِ عليه، ولا طائلَ للسَّامعِ لديهِ، فيكونُ مَثَلُهُ مَثَلَ الحَسَنةِ تَأتيكَ منْ حيثُ لم ترقبْهَا، والنافعةِ أتتكَ ولم تحتسـبْهَا، وربَّما رُزِقَ الطُّفَيْليُّ ظَرْفَاً يحظَى بِهِ حتَّى يحلَّ محلَّ الأضـيافِ الذين وقعَ الاحتشـادُ لهم، والأحبابِ الذين وُثِقَ بالأُنسِ منهم وبهم» (الجرجاني، 1991، ص19).

ولعلَّ أوَّلَ ما يسـتوقفُنَا في هذا النَّصِّ لغةُ البناءِ للمجهولِ التي ينسـبُ فيها الجرجانيُّ أحكامَ قيمةٍ إلى أناسٍ لم يُسـمِّهم أو يفصـحْ عنهم، وأظنُّ ههنا ظنًّا أشبهَ بالحقيقة أنَّ عبدَ القاهرِ أدركَ أنَّ هناك خللاً في إطلاقِ التَّسميةِ، أوْ أنَّ هناك شيئاً منْ عدمِ التَّناسـبِ بينَ الدَّلالة الاصطلاحيَّةِ والوظيفةِ البلاغيَّةِ، وكأنَّهُ في ذلكَ يشيرُ إلى منْ سمَّوه حشواً مفيداً[1]. فكيفَ يفيدُ إذا كانَ الحشوُ فضلاً لا يُعتَدُّ بِهِ، ولا يُعتَمَدُ عليهِ؟!.

إذن، أحسَّ الجرجانيُّ إحساسًا مبهمًا أنَّ في إطلاقِ التَّسميةِ تسرُّعًا يحتاجُ إلى مراجعةٍ غيرِ قليلةٍ، ولهذا ذهبَ البحثُ إلى أنَّه تناولَ هذا المفهومَ بلغةٍ حمَّالةِ أوجهٍ، يمكنُ للمرءِ أن يرجِّحَ أحدَ وجهيها إذا قَرَأَ التَّوطئةَ التي ذُكِرَ فيها نصُّـه السَّـابقُ، وقد دافعَ فيها دفاعًا شـديدًا عن فكرتِهِ الأثيرةِ التي غرَسَ لها غرسًـا في كتابِ المقتَصَـدِ، وروَّاها في أسرارِ البلاغةِ، فآتت أُكُلَها في دلائلِ الإعجازِ، وهي أنَّ ترتيبَ المعاني في الذِّكرِ يتبعُ ترتيبَهَا في النَّفسِ والفكرِ(الجرجاني، 1982م، م1ص108، 252، الجرجاني، 1991م، ص5 وما بعدها، الجرجاني، 1992م، ص49، 56)، وأنَّ حسنَهَا ولطفَهَا إنَّما يعودُ إلى أمرٍ يقعُ منَ المرءِ في فؤادِهِ، وفضلٍ يقتدحُهُ العقلُ من زنادِهِ على وفقِ تعبيرِهِ (الجرجاني، 1992،م، 6-7)[2].

وهذا يؤكِّدُ أنَّ الجرجانيَّ يرى التَّسميةَ حَشوًا مكيلًا، أو ضربًا من العَجَلةِ التي تفضـي إلى التَّخليطِ، بيدَ أنَّه لم يقدِّمْ بديلاً لها في أسرارِ البلاغةِ، فجارى مَنْ عابوه وسـمّوه حشـواً في أوَّلِ النَّصِّ، ولكنَّهُ أحسَّ بقيمتِهِ الفنِّيَّةِ والجماليَّةِ، فشـبَّهَهُ مرَّةً بالحَسَـنةِ تَأتيكَ منْ حيثُ لم

(1)- من هؤلاء مثلاً أبو منصور الثَّعالبي الذي قسَمَ الحشوَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: حشو مذموم، وحشو أوسط يتمُّ الكلامُ بمعزلٍ عنه كما يقولُ، ولكنَّه يفيدُ التَّأكيدَ والتَّفخيم في بعض الأحايين، وحشو حسن لطيف: أُعجِبَ بمواقعهِ إعجاباً مثيراً حتى وصفَهُ بعباراتٍ أنيقةٍ من مثلِ قولِهِ: لا يخفى حسنُهُ وبراعتُهُ.. وما لحسنه غاية، يقطرُ منه ماءُ الظَّرفِ. ينظر: فقه اللُّغة وأسرار العربيَّة، صـ440-441-442-443. وهذا ما نجدُهُ عند السَّكاكي فيما بعد، الذي جعله منْ موجباتِ الفصاحةِ والبلاغةِ، وقد أدرجَه ضمن المحسناتِ المعنويَّة التي يُصَارُ إليها لقصد تحسينِ الكلامِ، فقال: ومنها الاعتراض، ويُسَمَّى حشواً. ينظر: مفتاح العلوم، صـ423-428.

(2)- قال: وههنا أقسام قد يُتوَهَّمُ في بدء الفكرة، وقبل إتمامِ العبرةِ، أنَّ الحسنَ والقبحَ فيها لا يتعدى اللفظَ والجرْسَ، إلى ما يناجي فيه العقلُ النفسَ، ولها إذا حُقِّقَ النظرُ مرجعٌ إلى ذلك، ومنصرفٌ فيما هنالك، منها: ((التجنيس)) و((الحشو)).

ترقيْهَا، ومرَّةً بالطُّفيليِّ الظَّريفِ الذي يجدُ له مكاناً بينَ الأضـيافِ، وهو تشـبيهٌ طريفٌ ينمُّ على ذائقةٍ لغويَّةٍ راقيةٍ. ونحسـبُ أنَّ التَّشـبيهَ الأوَّلَ لا يعنى إلَّا الكلامَ على وظائفِ هذا الأســلوبِ وأغراضِــهِ البلاغيَّةِ، وأســراره البيانيَّة. أمَّا الثَّاني فمنَ الممكنِ أنَّهُ أرادَ بهِ عدمَ التَّعارضِ معَ الوضـعِ اللُّغويِّ، أوْ بلغتِهِ: «أنْ تضـعَ كلامَكَ الوضـعَ الذي يَقتضـيهِ ((علمُ النَّحو))، وتعملَ على قوانينهِ وأُصـولِه، وتعرفَ مناهجَهُ التي نُهِجَتْ فلا تزيغُ عنها، وتحفَظَ الرُّسومَ التي رُسمتْ لكَ، فلا تُخلُّ بشيءٍ منها» (الجرجاني، 1992م، ص81).

المهمُّ أنَّ الجرجانيَّ طَوَى الأمرَ بعدَ ذلكَ النَّصِّ طيًّا كاملًا، ولم يرجِعْ إليه إلا في جملةٍ واحدةٍ في دلائل الإعجاز، وقد ســمَّاه هناك اعتراضًــا بلا تردُّدٍ، ووصــفه باللُّطفِ والطَّلاوة على مذهبِهِ وســمتِهِ إذا حرَّكت قلبَه نشــوةُ الكلامِ، وهزَّت أعطافَه فخامةُ النَّظم، وقد ضَرَبَ لذلك مثلًا قولَ ابنِ المعتزِّ(ابن المعتز، د.ت، ج1، 388):

وإنّي على إشفاقِ عيني مِنَ العِدَى لتَجمَحُ منّي نظرةٌ ثُمَّ أُطرِقُ.

وقد ذكرَ الإمامُ الجرجانيُّ هذا البيتَ في بابِ (النَّظم يتحِدُ في الوضْــعُ، ويدِقُّ فيه الصّــنعُ)، وفَرَشَ بين يدي هذا البابِ أبياتًا من فاخرِ الشِّعر، عدَّها من النَّمَط العالي والبابِ الأعظمِ، الذي لا تَرَى سُلطانَ المزيَّة يعظُم في شيءٍ كعظمها فيه كما قالَ(الجرجاني، 1992م، ص95)، فهي من دقيقِ النَّظم، وجليلِ تراكيبِهِ التي تشـبه البناءَ المحكمَ، والنَّسـجَ المنظَّمَ، وبيتُ ابن المعتزِّ ضـربٌ عزيزٌ من ضُــرُوبها الفاخرةِ؛ لأنَّ «هذِهِ الطَّلاوةَ وهذا الظُّرفَ [يعني بيت ابن المعتز الســابق]، إنَّما هو لأنْ جعلَ النَّظرَ ((يجمحُ)) وليسَ هو لذلكَ، بلْ لأنْ قالَ في أوَّلِ البيتِ ((وإني)) حتَّى دخلَ اللامُ في قولِه ((لتجمحُ)) ـ ثمَّ قولُه: ((منّي)) ـ ثمَّ لأنْ قالَ ((نظرةٌ)) ولم يقلِ ((النَّظر)) مثلاً ـ ثم لمكانِ ((ثمَّ)) في قولِه: ((ثم أُطرِق)) ـ وللطيفةٍ أخرى نَصــرَتْ هذه اللطائفَ، وهي اعتراضُــهُ بينَ اســم ((إنَّ)) وخبرها بقولِهِ: ((على إشفاقِ عيني منَ العِدى))»(المصدر نفسه، ص99).

هنا لابدَّ من محاورةِ الجرجانيِّ لنعرفَ لِمَ بيَّضَ صــفحاتٍ في التَّقديم والتَّأخير، والحذف والذِّكر، والتَّعريف والتَّنكير، والفصــل والوصل، وضَرَبَ عن هذا الباب صفحًا إلا في الموضعينِ المذكورينِ؟.

أوَّلًا، لابدَّ من أن نعرِفَ أنَّ الاعتراضَ وجهٌ من وجوهِ النَّظم على ما ذَهَبَ إليه الجرجانيُّ، ولو تفقَّدنا كتابَ الخصـائص مثلًا، لوجدنا الأمرَ ظاهرًا ((كالصبح منبلجًا في عين رائيه)) (المصدر نفسه، ص11) كما يقولُ الإمامُ الجرجانيُّ؛ لأنَّ ابن جنِّي وطَّأ لهذا الباب قبلَ أن يفتَحَهُ على مصراعيه، ويجعلَ له نصيبًا وافرًا مما كَتَبَ، فَذَكَرَه في بابِ ما يجوزُ في الشِّعر من الضَّرورة (ابن جني، د.ت، ج1، ص330)، فوجدَ أنَّ له حسـنًا غيرَ مردودٍ، وبلاغةً تؤذنُ بتقدُّم صـاحبها وطولِ باعِهِ، فوعَدَ بأنْ يفتَحَ له بابًا من خصـائصـه خاصًّا، وقد وَفَى بما وَعَدَ؛ فذكَرَ له شواهدَ كثيرةً من فصيحِ الشِّعرِ، ومنثورِ الكلامِ العربيِّ المبينِ؛ ليصِلَ في ختامِ بابِهِ هذا إلى أنَّ «الاعتراضَ في شـعرِ العربِ كثيرٌ وحسـنٌ، ودالٌّ على فصـاحةِ المتكلِّمِ وقوَّةِ نَفْسِـهِ وامتدادِ نَفَسِـهِ وقد رأيته [كما يقول] في أشـعارِ المحدَثين وهو في شعرِ إبراهيم ابن المهدي أكثر منه في شعر غيره من المولَّدين»(ابن جني، د.ت، ج1، ص341).

فإذا كانَ أبو الفتح قد عدَّه دليلًا من أدلَّةِ فصاحةِ المتكلِّم، وقوَّةِ نفْسِهِ، وامتدادِ نَفَسِهِ= وعدَّه الإمام الجرجانيُّ ضربًا من ضُرُوبِ الكلام العالي، والنَّمط الفاخر= فذاك بأن يكون من وُجُوهِ النَّظم أولى وأحرى، ولو تفقَّدنا أبوابَ دلائل الإعجاز، وتأمَّلنا أُصُــولَها النَّفســيَّةَ والوجدانيَّةَ التي يتغوَّلُ بها أهلُ الصَّــنعة، وأربابُ الفَنِّ في أعماقِ اللُّغة ليركبوا مراكبها البيانيَّة المؤذِنَةَ بالشَّــجاعةِ والجُرأةِ والإقدامِ= لو تأمَّلنا ذلكَ كلَّه، لوجدنا من غيرِ عَنَتٍ أنَّ الاعتراضَ أولى بأنْ يســتَظِلَّ بظلِّ أبواب الدَّلائل مبســوطًا غيرَ مقبوضٍ؛ لأنَّه لا يقِلُّ عن التَّقديم والتَّأخير والحذف والذِّكر في الدَّلالة على قُوَّةِ النَّفْسِ وامتدادِ النَّفَسِ، ولا يقِلُّ عنهما في تقديم اللُّغة بمذهبٍ جديدٍ، وطريقةٍ غيرِ

معتادةٍ، لا تخرُجُ عن القياس وما هو من واديه وبناتِهِ، وهذا هو البابُ الذي دَخَلَ منه ابنُ جنّي ليسمّيَ أبوابًا من خصائصه: (شجاعة العربية)، ولقد علمتَ أنَّ الشَّــجاعةَ اللُّغويَّةَ في فكرِ أبي الفتح هي ذاتُها الشَّــجاعة التي يركبُ مراكبَها فارسٌ (يرى غَمراتِ الموتِ ثُمَّ يزورُهَا) كما يقول جعفرُ بنُ عُلبَةَ الحارثيُّ= يركبُ حدَّها غيرَ محتشــمٍ ولا هيابٍ، فيكونُ مثلُه عند أبي الفتح «مثلُ مُجري الجمُوح بلا لجامٍ، ووارِدِ الحربِ الضـرُوسِ حاسرًا من غيرِ احتشامٍ. فهو وإنْ كانَ ملومًا في عُنفِهِ وتهالكِهِ، فإنَّه مشهودٌ له بشجاعتِهِ وفيضِ مُنَّتِهِ؛ ألا تراه لا يجهلُ أنْ لو تكفَّرَ في سلاحِهِ، أو اعتصَمَ بلجامِ جوادِهِ، لكانَ أقربَ إلى النَّجاةِ، وأبعدَ عن الملحاةِ؛ لكنَّه جشِمَ ما جشِمَهُ على علمِهِ بما يعقِبُ اقتحامُ مثلِهِ، إدلالًا بقوَّةِ طبعِهِ، ودلالةً على شهامةِ نفسِهِ» (المصدر نفسه، ج2، 392).

هذا فيما يتَّصلُ باتِّفاقِ الاعتراضِ مع شجاعةِ العربيَّةِ؛ فهو فرعٌ من فروعِ هذه الفكرة العبقريَّةِ لابن جنّي، وشجاعةُ العربيَّةِ ـــــ كما عرفتَ ــ تستظِلُّ في ظلّها الأبوابُ التي كانت مدارَ بحثِ عبد القاهر في دلائل الإعجاز؛ ولكنَّه زادَ عليها زياداتٍ أدخلَتْها بابًا آخرَ على غيرِ ما ذَكَرَ ابنُ جنّى الذي اكتفى بالتَّأصــيل، والنَّظر في أبوابِ الصِّــناعة، وهذه هي فضــيلةُ العلماءِ الأجلاءِ في أنَّكَ تجِدُ الفكرةَ عند أحدِهِم فردةً غريبةً، ثمَّ ينقلُها الآخرُ فيخصِــفُ عليها من عنايتِهِ أوراقًا تذَرُوها متألِّقةً تضــرِبُ بجذورها بأعماقِ الثَّرى، وتشمَخُ بفروعِهَا إلى سماواتٍ كريمةٍ تؤتي بذلك أُكُلَها كلَّ حينٍ. هذا أمرٌ مهمٌّ ينبغي ألَّا ننسَاه.

الأمرُ الآخرُ يتعلَّقُ بقلَّةِ احتفالِ الجرجانيّ بهذا الباب، على أهمّيتِهِ ودلالته على قُوَّةِ النَّفْسِ، وامتداد النَّفَسِ، وقُوَّةِ الطَّبعِ. فما مغزى هذا؟ أوَّلًا، أدرك الجرجانيُّ أنَّ الاعتراضَ أصــلٌ من أُصُــولِ البابِ الذي كابَدَه طويلًا، وتنفَّس به الوقتُ وهو يقلّبُه ويعيدُ النَّظرَ فيه، وهذا واضحٌ بلا تكلُّف؛ لأنَّه ذكرَهَ ضمن الضُروب التي يتحِدُ فيها الوضعُ ويدِقُ الصّنعُ، ولكنَّه لم يزِدْ فيه، ولم يحتفِلْ له احتفالَه بمثيلاته من الوُجُوه والفُرُوق؛ لأنَّ أمرَه ظاهرٌ، وقواعدَهُ معروفةٌ، وفنونَه مألوفةٌ، وغَمْسُ القلمِ في شيءٍ كهذا تكلُّفٌ لا يعودُ بطائلٍ، ولاسيَّما إذا عرفنَا أنَّ الإمامَ العبقريَّ يطمَحُ ببصرِهِ وبصيرتِهِ إلى شيءٍ أبعدَ منالًا، وأعزَّ مذهبًا، وهو الذي قالَ فيه: «ولم أزلْ منذُ خدمتُ العِلْمَ أنظرُ فيما قاله العلماءُ في معنى ((الفصــاحةِ))، و((البلاغةِ))، و((البيانِ))، و((البَراعةِ))، وفي بيانِ المَغْزى من هذه العباراتِ، وتفسيرِ المُرادِ بها، فأجدُ/ بعضَ ذلك كالرَّمز والإيماء، والإشارةِ في خَفَاء، وبعضَــه كالتنَّبيه على مكانِ الخبيء ليُطلبَ، ومَوضــعِ الدَّفينِ ليُبحثَ عنه فُيخرجَ»(الجرجاني، 1992م، ص34).

نعم، كانَ الرَّجلُ يطوي جوانِحَهُ على هَدَفٍ عزيزٍ، وغايةٍ بعيدةٍ، ولا نقُلْ: إنَّه يتكلَّمُ ههنا على مجالٍ آخرَ مدارُهُ على الفصــاحةِ والبلاغةِ والبيانِ والبراعةِ= فإنَّه في تتمَّةِ النَّصّ يتكلَّمُ على النَّظمِ والتَّركيبِ والتَّرتيبِ الذي يســتقي من معاني القلبِ، ودقَّةِ التَّفكيرِ، وقوَّةِ المنطق ما يكســوه الطَّلاوةَ والظُّرفَ كما قالَ في بيتِ ابنِ المعتزّ قديمًا، وإنَّما أخذتُ من النَّصّ ما يدلُّ على مجالِ منهجِهِ المتغوِّلِ في أعماقِ المسائلِ وأوابدِ الأفكار، ويكفي من القلادةِ ما أحاطَ بالجِيدِ كما قالتِ العَرَبُ.

بَقِيَ شــيءٌ واحدٌ لابدَّ من الإشارةِ إليه قبلَ إلقاءِ القَلَمِ جانبًا، وهو أنَّ نظريَّةَ النَّظمِ منهجٌ لغويٌّ جليلٌ، واجتهادٌ عبقريٌّ متميّزٌ لا نظيرَ له في تراثِنَا الأصــيلِ، وقد تركَهُ الجرجانيُّ على طَرَفِ التَّمامِ بعد أنْ بَسَــطَ القولَ في بيانِ ما أَشْــكَلَ، وحَلّ ما انعَقَدَ، ولكنَّه وَجَدَ أنَّ اللِّســانَ العربيَّ مازالَ مطويًّا على ذخائِرَ نفيســةٍ تحتاجُ إلى من يُزِيلُ عن وجهِهَا غُبارَ السِّــنين، وَخُذْ من طَرَفِ قلمِهِ برهانًا يشــعِلُ الأعصــابَ بهمَّةِ البحثِ، والتَّدقيقِ، والجَدِّ، والاجتهادِ، والكفاحِ= يقولُ: في حذفِ المفعولِ به: «ليسَ لنتائِجِ هذا الحذفِ، أعني حذفَ المفعولِ به، نهايةٌ، فإنَّه طريقٌ إلى ضُــرُوبٍ من الصَّــنعةِ، وإلى لطائِفَ لا تُحصَــى»(المصــدر نفســه، ص163)، وقالَ في كلمةِ

(الذي): «اعلمْ أنَّ لك في الذي علمًا كثيرًا، وأسـرارًا جمَّةً، وخفايا إذا بحثْتَ عنها وتصـوَّرتَهَا اطَّلعتَ على فوائِدَ تؤنِسُ النَّفسَ، وتُثلِجُ الصَّدرَ، بما يفضـي بكَ إليه من اليقينِ، ويؤدّيهِ إليكَ من حُسْنِ التَّبيينِ»(المصدر نفسه، ص34).

ثمَّ ذَكَرَ في البابِ ذاتِهِ: أنَّ «هذه جملةٌ مفهومةٌ، إلَّا أنَّ تحتَهَا خبايا تحتاجُ إلى الكشْفِ عنها»(المصدر نفسه، ص199)، وهذا كلامُ امرئٍ كُشِفَ له عن طَرَفٍ، فذَاقَ حلاوةَ الكشفِ، فأحَبَّ أنْ ينبّهَ إلى أنَّ وراء الحُرُوفِ والكلماتِ من غوامضِ المعنى ودقيقِ المسالك ما يُثلِجُ الصَّـدرَ، ولكنَّه يضـعُ أُصُـولًا تفرِضُ عليه أحيانًا أن يقتصِـرَ ويختصِـرَ؛ ولهذا قالَ في نهايةِ حديثِهِ عن (إنَّ): «وليسَ الذي يعرِضُ بسـبَبِ هذا الحرفِ من الدَّقائِقِ والأمورِ الخفيَّةِ، بالشَّـيءِ يُدرَكُ بالهُوينا. ونحنُ نقتصِـرُ الآنَ على ما ذكرنَا، ونأخذُ في القولِ عليها إذا اتَّصَلت بها ((ما))» (المصدر نفسه، ص327)، وكانَ يقولُ قبلَ هذا؛ في بابِ الكنايتينِ، كيفَ تختلفانِ فلا تكونُ إحداهما نظيرًا للأخرى: «وليسَ لشُعَبِ هذا الأصلِ وفروعِهِ وأمثلتِهِ وصورِهِ وطرقِهِ ومسالكِهِ حدٌّ ونهايةٌ»(المصدر نفسه، ص313).

وهذا مذهَبٌ من مذاهبِهِ في التَّأليفِ، مبسوطٌ فيما كَتَبَ، ظاهرٌ لمَنْ قلَّبَ صـفحاتِ أسرارِ البلاغةِ ودلائلِ الإعجازِ، والأمرُ في هذا الأخيرِ ظاهرٌ أكثرَ، والخبرُ به مستفيضٌ، ويبقَى أنْ يتأمَّلَ مَنْ أرادَ أن يضَـعَ سمتَهُ ورسمَهُ وأنفاسَـهُ في هذا التُّراثِ العظيمِ، ويدقِّقَ في ألفاظِ عبدِ القاهر وأضـرابِهِ؛ لأنَّ لغةَ الأوائل لا تعطيكَ بعضَـها حتَّى تعطيَهَا كُلَّكَ، ولا تسـفِرُ لكَ عن مقاصِـدِهِم حتَّى تدمِنَ قرعَ الأبوابِ، وتقِفَ عندها وقوفًا صـابرًا، وتسـألَهَا حتَّى تُجيبَ؛ لأنَّ السُّـؤالَ مفتاحُ الفكرةِ، وقدْحُ الأفكارِ ببعضِـهَا مذهبٌ جليلٌ تربُو بِهِ اللُّغةُ وتُنبِتُ، وبهذا وبأمثالِهِ تُخرَجُ أضـغانُها وتُبعَجُ أحضـانُها بعبارةِ ابنِ جنّي، وقد ذكرتُ هذه الشَّـواهِدَ من صـميمِ علمِ الجرجانيّ؛ ليسـتبينَ لنا مذهبُ هذا الإمامِ العبقريّ، الذي لم يكن يرمي إلى صُـنعِ أُصُـولٍ تكونُ علمَ الجرجانيّ وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القتالَ؛ بل تقلَّبَ في سَـمَاواتِ العلمِ عقلُهُ، وقلَّبَ فيها بصـرَهُ وبصـيرتَهُ، فولَّى وجهَهُ شـطرَ هدفٍ شـريفٍ، وغايةٍ سـاميةٍ، وهي أنْ يربّيَ جيلًا، ويصـنعَ عُقُولًا تقلّبُ صـفحاتِ ما كَتَبَ والغيرةُ تملأُ خوابي عظامها؛ لإتمامِ ما نقَصَ، وبسْطِ ما انقَبَضَ، وكشْـفِ ما استَبهَمَ، أي أنْ تسقيَ ما غَرَسَهُ بيديه، كما سَقَى بمدادِ قلمِهِ غرْسَ أبي عليٍّ الفارسيّ، وابنِ جنّي ومن سواهم فآتى أُكُلَه على يديه ضعفين، وهذا هو مذهبُ «الرَّاغبِ في اقتداحِ زِنادِ العقلِ، والازديادِ من الفضْـلِ، ومَنْ شـأنُهُ التَّوْقُ إلى أنْ يعرِفَ الأشـياءَ على حقائِقِهَا، ويتغلغَلَ إلى دقائِقِهَا، ويبرأَ بنفسِهِ عن مرتبةِ المقلِّدِ، الذي يجري مع الظَّاهِرِ، ولا يعدو الذي يقَعُ في أوَّلِ الخَاطِرِ» 0الجرجاني، 1992م، 171).

الخاتمة:

من مسـائلِ العلم ما هو منقادٌ، يسـيرُ الفهم، لا يحتاجُ إلى مكابدةٍ أو طويلِ اجتهادٍ، ومنها ما يحتاجُ إلى تقليبِ الفكرة زمنًا طويلًا حتى تبردَ في اليد، وإذا وضـعنا أبواب دلائل الإعجاز تحتَ هذه العين، وجدنا أبوابَه قائمةً على استنباط فنونها من ألسنة الشُّعراء خاصَّـة، ومن الكلام العربيّ عامَّةً، وقد كان الجرجانيُّ يقول: إنَّ للكلام وجوهًا كثيرة جدًّا، وفروقًا كثيرة جدًّا، وهذِهِ الكثرةُ الكاثرةُ تقع بعيدة جدًّا من عدد الأبواب التي طرقها، وهذا ـ إذا تصوَّرناه في ضوء أبواب شجاعة العربيَّة، والاعتراضُ يمسكُ بطرفٍ دانٍ منها ـ يدلُّ على أنَّ الرجلَ تجاوزه لوضـوحِهِ وانكشـافِ أغراضِـهِ، وظهور قواعده، أمَّا وجوه الكلام فكثيرةٌ كما قال، وهنا ينبغي أن يصـلحَ الدَّراسـون ذاتَ بينها، ويجمعوا ما تشـعَّث منها، أو فرَّقته المناهجُ، وأهدافُ الدِّراسـات، وما جَمْعُها إلَّا خطوةٌ على طريق عربيٍّ محضٍ، إذا أردنا أن نضعَ لأنفسنا منهجًا عربيًّا قادرًا على أن يقرأَ التراثَ العربيَّ بعينٍ بعيدةٍ عن الإسقاط المتعسّف الهجينِ.

بعبارةٍ ثانيةٍ: كانَ بحثُ الجرجانيّ مقتصـرًا على بيانِ ما أَشـكَلَ، وحَلّ ما انعَقَدَ، والنَّظرِ فيما كان كالإيماءِ والرَّمزِ، والإشـارةِ في خفاء كما قال، ولم يكُ مشـغولًا بما اتَّضـحَت سبيلُهُ، واستبانت طرائقُهُ، أمَّا ما لا تتعدَّدُ به الوُجُوهُ، وتتشـعَّبُ معه السُّبُلُ – والاعتراضُ على

رأس وُجُوهِهِ – فلم يُولِهِ من عنايته صـدرًا صـالحًا. وهذِهِ من قضـايا المناهج، لها ما يسـوِّغُها، يدلك على هذا أنه عندما أدركَ أنَّ لهذا الفنِّ البلاغيّ أثرًا جليلًا في مقاصِــدِ الكلامِ العربيّ، وفهم أســراره، وإدراك خفاياه ـ اعترتْهُ من بيتِ ابن المعتزِّ طربةٌ لم يملكْ لها دفعًا، فوصَفَ موضعَ الاعتراض بأنَّ له طلاوةً وظرفًا، وهذِهِ من صفاتِ الكلامِ الشَّريفِ الذي تهتزُّ له الأعطافُ، ويعتريها من جمالِهِ الطَّرَبُ. ومن قبل هذا ومن بعده أيضًــا نقول: مازالت نظريَّةُ النَّظم منطويةً على ذخائِرَ نفيســةٍ، وأفكارٍ جليلةٍ تحتاجُ إلى فضــل نظرٍ وتأمُّلٍ ومسائلةٍ، ولكنَّ كثيرًا من أدواتِها مازالَتْ مشعَّثَةً، وحقُّها أنْ تكونَ مجموعةً؛ فذلكَ جوهرُهَا وسرُّهَا وطلاوتُها الرَّائقُةُ التي تُنَصِّبُها معيارًا تُوزَنُ به النُّصـوصُ، ومنهجًا ذوقيًا عاليًا يسفِرُ عن مراميها البعيدة. وهذا هو البابُ الصَّـحيح ليخطوَ الخلفُ في تراثِ السَّلف خُطوةً رائعةً تزيدُه ألْقًا وإشـراقًا، ومن أدلَّة هذا أنَّ الإمامَ الألمعيَّ تَرَكَ وراءَه أفكارًا على طَرَفِ التَّمام بعد أن ضَـرَبَ المدى، وأقام الصُّـوى، وأوضحَ الهُدى.. أوْضَحَ ذلك كُلَّه ولسانُ حالِهِ يقولُ ما قالَ ابنُ الجُوَيريَّة (الطائي، د.ت، 262):

المجدُ بابٌ على الأقوامِ ذُو غَلَقٍ وفي أَكُفِّهُمُ مِنـــــه المَقَالِيْـــــدُ.

التَّمويل:

هذا البحث ممَّول من قبل جامعة دمشق وفق رقم التَّمويل: (5011000020595).

المصادر والمراجع:

1- أبو تمام، د.ت، كتابُ الوَحشيَّات (الحماسة الصُّغْرى)، ت: أ د. عبد العزيز الميمني، زادَ في حواشيه: محمود محمَّد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

2- الثعالبي، (2000)، فقــهُ الُّلغة وأسرار العربيَّة، ت: ياسين الأيوبي، ط2، صيدا، بيروت.

3- ابن جني، الخصائص، ت: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، مصر.

4- السكاكي، (1983)، مفتاح العلوم، تعليق: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

5- الإمام الشافعي، د. ت، الرسالة، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

6- الجرجاني عبد القاهر، د. ت، (1982)، المقتصد، ت: د. كاظم بحر المرجان، دار الرشيد، العراق.

7- الجرجاني عبد القاهر، (1991)، أسرار البلاغة، ت: محمود شاكر، ط1، دار المدني، جدة، السعودية.

8- الجرجاني عبد القاهر، (1992)، دلائل الإعجاز، محمود شاكر، ط3، دار المدني، جدة، السعودية.

9- ابن المعتز، د. ت، ديوان ابن المعتز، ت: د. محمد بديع شريف، دار المعارف، القاهرة، مصر.

10- ابن منقذ، أســامة، (1983)، ديوان أســامة بن منقذ، ت: د. أحمد أحمد بدوي، د. حامد عبد الســتار، ط2، عالم الكتب، بيروت، لبنان.